

القَصَصُ الدِّينِي
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

الحج والطلب

عبد الحميد جودة السحار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً
وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴾ .

(قرآن کریم)

كان اليونان من قديم الزمان ، قبل عهد الإسكندر ، يسكنون بلاد الشرق ، وكانوا أهل حكمة ورأى ، يعيشون فى بُحْبوحَةٍ من العيش ، يملكون الممالك ، ويُسْطَون سلطانتهم على ماجاورهم من بلاد .

ومرّت السّون ، وظهرت قوّة الفُرس ، ونافست اليونان ، وزاحتهم على ما كان بأيديهم من الممالك ؛ فلمّا ضاقت رُقعة الأرض أمام اليونان ، انتقل بعض المغامرين من أهلها إلى الأندلس ، ولم

يَكُنْ لَهَا ذِكْرٌ إِذْ ذَاكَ ، كَانَتْ جَزِيرَةً لَمْ يَمْشِ فِيهَا
 الْعُمَرَانُ ؛ فَلَمَّا وَقَدَ إِلَيْهَا الْيُونَانِيُّونَ الْمُتَحَضِّرُونَ ،
 وَأَقْبَلُوا عَلَى عِمَارَتِهَا ، فَشَقُّوا الْأَنْهَارَ ، وَبَنَوْا
 الْمَعَاقِلَ ، وَغَرَسُوا الْجَنَانَ وَالْكُرُومَ ، وَشَيَّدُوا
 الْأَمْصَارَ ، وَمَلَأُوهَا حَرِّثًا وَنَسْلًا وَبُنْيَانًا .

صَارَتْ الْأَنْدَلُسُ جَنَّةً فِي الْأَرْضِ ، وَصَارَ هُمُ
 أَهْلِهَا تَحْصِينَهَا وَحَمَايَتَهَا مِنْ إِيْغَارَاتِ الْأُمَمِ الْقَرِيبَةِ
 مِنْهَا . نَظَرُوا فَوَجَدُوا أَنَّهُ لَا يَحْسُدُهُمْ عَلَى رَغَدِ الْعَيْشِ
 إِلَّا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْهُمْ فِي ضَيْقٍ
 وَشِدَّةٍ ، وَهُمْ الْعَرَبُ وَالْبَرْبَرُ ، فَخَافُوهُمْ عَلَى
 جَزِيرَتِهِمُ الْعَامِرَةِ ، وَجَعَلُوا يُفَكِّرُونَ فِي حَمَايَتِهَا مِنْ
 نَظَرَةِ الطَّمَعِ ، الَّتِي تَأْتِلِقُ فِي عَيُونِهِمْ .

لم تكن الأندلسُ مملكةً واحدة ، بل كانت عدَّة ممالك مُتجاورة ، يحكمُ كلًّا منها ملكٌ مُستقلٌّ يُدبِّرُ شئونها . وكان بجزيرة قادس ، نواحي غرب الأندلس ، ملكٌ يوناني ، له ابنةٌ رائعةُ الحسن ، غايةُ الجمال ، تسامعُ بها ملوكُ الأندلس ، فطمع كلُّ منهم في أن تكونَ زوجته ، فخرجوا إلى قادس يخطبونها .

وغصَّ قصرُ الملكِ برسلِ ملوكٍ وفدوا إليه ، يطلبون يدَ ابنته ، فلم يغبط ، واستولى عليه قلقٌ وحيرة ، فما كان يدرى ما يفعل ؛ خشي إنَّ زوجها

من واحد ، أسخطَ الباقيين ، فِعَادُونَهُ ، وتُصْبِحُ
مَمْلَكَتَهُ هَدَفًا لِإِغَارَاتِ مَلُوكِ حَاقِدِينَ .

ودخل على ابنته وهو قلقٌ مضطرب ، فلمَّا
لَمَحَتْ الحزنَ في وجهه ، قالت :
- ما الَّذي يحزنُك يا أبى ؟

قال لها وهو مُطرق :

- يا بنية ، إنى أصبحتُ على حَيْرَةٍ فى أمرِك مُنْ
يخطُبُك من الملوك ، وما أرضى واحدًا إلاَّ أسخطَ
الباقيين .

فقالت فى هدوء :

- اجعل الأمر إلى " تَخْلُص " .

فنظر إليها مليًا ، ثم قال :

- وما تقترحين ؟

وخرج الملكُ إلى رُسُلِ الملوكِ مُستبشِراً ، ودفعَ
 إليهم بجوابه على طلبهم ؛ فعادَ الرُّسُلُ إلى الملوكِ ،
 فلمَّا وقفوا على الجواب ، سكتَ مَنْ لم يكنْ
 حكيماً . ولكنَّ مَلِكَيْنِ مِنَ الخاطِئينَ ، أعادا الكتابةَ
 إليه ؛ فلمَّا فضَّ كتابيهما ، وجد أنَّ كلا منهما قد
 كتب أنَّه الملكُ الحكيمُ ، الَّذي تطلبه ابنته ، فأصبح
 في حَيْرَةٍ ، وعاد إليه همُّه ، ودخل على ابنته ، وقال
 لها :

- يا بُنَيَّةُ بَقِيَ الأمرُ على إشكال ، وهذان ملكان

حكيمان ، أيهما أَرْضِيْتُ ، أَسَخَطْتُ الآخر .

فَقَالَتْ فِي هَدوءٍ :

- هَوْنٌ عَلَيْكَ .

- وَمَاذَا تَفْعَلِينَ ؟

قَالَتْ :

- سَأَقْرَحُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَمْرًا يَأْتِي بِهِ ،

وَأَيُّهُمَا سَبَقَ إِلَى مَا التَّمَسَّتْ ، كُنْتُ زَوْجَتَهُ .

قَالَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا فِي إِعْجَابٍ :

- مَا الَّذِي تَقْرَحِينَ عَلَيْهِمَا ؟

قَالَتْ وَهِيَ تَبْتَسِمُ :

- أَلَسْنَا مُحْتَاجِينَ يَا أَبَتَاهُ إِلَى رَحَى تَدْوَرُ ، لَطْحَنِ

الْحُبُوبِ ؟

- نَعَمْ .

قالت :

- ألسنا محتاجين إلى تحصين جزيرة الأندلس من

البربر ؟

- وما دخل الرّحى و تحصين الجزيرة ، فى طلب

هذين الملكين ، اللذين يدّعيان الحكمة ؟

- إنى مقترحة على أحدهما : إدارة الرّحى بالماء

العذب الجارى إليها من ذلك البرّ ، ومقترحة على

الآخر أن يتخذ لى طلسما ، تحصن به جزيرة

الأندلس من البربر .

فاشرق وجه أبيها بابتسامة عريضة ، وربّت على

كتف ابنته فى حنان ، وقال :

- بورك فيك .

وكتب إلى الملكين بما قالت ابنته ؛ فأجاباه إلى ذلك ، واختار أحدهما ، إدارة الرّحى بالماء العذب ، وقبل الآخر إقامة طلّسم يحمى الأندلس من إغارات البربر ، الذين تأتلق عيونهم بالطّمع فى الجزيرة .

راح الملكان يعمّلان دون كلال ، ليفوزا بالأميرة الجميلة ؛ فراح صاحب الرّحى يقطع الحجارة ، ويُنضّد بعضها إلى بعض فى البحر المالح ، الذى بين جزيرة الأندلس والبرّ الكبير فى موضع زقاق سبّنة ؛ فلما تمّ تنضيد الحجارة للملك الحكيم ، جلب الماء العذب من جبل عالٍ فى البرّ الكبير ، وسلّطه من

ساقية مُحكمة ، وبني بجزيرة الأندلس رَحَى على
هذه الساقية .

وأما صاحب الطَّلسم ؛ فراح يرصدُ السُّحُوم ، ثمَّ
ابتنى بُنيَانًا مُربَّعا من حجرٍ أبيض ، على ساحل
البحر ، في رملٍ مُتراكم ، حفر أساسه ، إلى أن
جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض
ليثبت ؛ فلَمَّا انتهى البناء المربعُ إلى حيثُ اختار ،
صوَّر من النُّحاس الأحمر والحديد المصْفى ،
المخلوطين بأحكام الخلط صورة رجلٍ بربريٍّ له
لحية ، وفي رأسه ذُوَانَةٌ من شعرٍ جعد ، وهو متأبِّطٌ
بصورةٍ كساءٍ قد جمع طرقيه على يديه اليسرى ،
بالطفِ تصويرٍ وأحكامه ، في رجله نعل ، وهو قائمٌ
من رأس البناء على مكان عال بمقدارِ رجليه فقط ،

وهو شاهقٌ في الهواء ، طوله يزيدُ على ستينَ أو
سبعينَ ذراعاً ، وقد مدَّ يده اليمنى بمفتاح قفلٍ قابضٍ
عليه ، مُشيراً إلى البحر كأنه يقول : لا عبور .

وكان تصميمُ التمثالِ بحيثُ إذا جرتُ في البحرِ
سفينةٌ بربرٌ ، يسقطُ المفتاحُ من يده ، فيستعدُّ أهلُ
الأتدلسِ لملاقاةِ الغازي المغير .

٥

راحَ الملكانِ يتسابقانِ ليفوزَ كلُّ منهما بالجميلة ،
التي كانت محطَّ أنظارِ كلِّ الملوك . وفرغَ صاحبُ
الرحى أولاً ، وهرعَ إلى الملكِ يزفُ إليه النِّبأ ،
ودخلَ الملكُ على ابنته ، وقال لها :

- لقد فرغَ صاحبُ الرَّحَى من عمله .

فقالَت الابنة :

- أخفِ أمرَهُ على صاحبِ الطَّلسم .

فقال الأب في دهَش :

- لماذا ؟

- لئلا يتركَ عمله ، فيطُلَّ الطَّلسم ، لنحظى

بالرَّحَى والطَّلسم معاً .

فقال الأبُ في حيرة :

- وكيف نحفظُ لصاحبِ الرَّحَى بحقِّ سبقه ؟

فقالَت في ثقة :

- ما أيسرَ ذلك ! تُعلنُ عن الرَّحَى في صباح

اليوم الَّذي يفرُغُ صاحبُ الطَّلسم في آخره .

فقال الأبُ في فرح :

- إنك أحكمُ منهما يابُنيَّة .

وعكفَ صاحبُ الطَّلسم على عمله حتى أتمه ،
ولم يبقَ إلا بياضُ نهارٍ ليفرغَ منه ؛ فبعثَ الملكُ إلى
صاحبِ الرَّحى أن أعلنَ عن فوزك ، فأسرعَ إلى
عمله ، وأجرى الماءَ في الجزيرة ، وأدارَ الرَّحى ،
واشتهرَ ذلك ، وذاعَ أمره ، وتحدثَ الناسُ عن فوزِ
صاحبِ الرَّحى بالأميرةِ الجميلة .

واتَّصلَ الخبيرُ بصاحبِ الطَّلسم ، وهو في أعلى
الثَّبةِ ، يصقلُ وجهَ التَّمثالِ ، فلما تحقَّقَ أنه مسبوق ،
ضعفتَ نفسه ، فسقطَ من أعلى البناءِ ميتاً .
وتزوَّجَ صاحبُ الرَّحى الأميرةَ ، وفازَ بالجميلةِ

والرَّحَى وَالطَّلْسَم .

وَمَرَّتْ سِنُونُ وَالْأَنْدَلُسُ فِي مَأْمَنِ مِنْ غَارَاتِ
الْبَرْبَرِ ، ثُمَّ رُؤِيَ وَضِعُ الطَّلْسَمِ فِي تَابُوتٍ مِنْ
الرَّخَامِ ، نُقِلَ إِلَى بَيْتٍ فِي « طَلَيْطَلَة » ، وَوُضِعَ
عَلَى ذَلِكَ الْبَابِ قُفْلٌ ، وَأَصْبَحَتِ التَّقَالِيدُ تَقْضِي أَنْ
يَضَعَ كُلُّ مَلِكٍ يَعْتَلِي الْمُلْكَ ، قُفْلًا عَلَى ذَلِكَ الْبَابِ ،
تَأْكِيدًا لِحِفْظِ ذَلِكَ الْبَيْتِ .

وَحَانَ وَقْتُ دُخُولِ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ الْأَنْدَلُسَ ،
وَاقْتَعَدَ أَرِيكَةَ الْمُلْكِ مَلِكٌ ، طَمَعَ فِي الْبَيْتِ الْمُحَاطِ
بِالْأَسْرَارِ ، فَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَقْتَحِمَ عَلَيْهِ قَدَاسَتَهُ ، فَأَمَرَ
بِفَتْحِهِ ؛ فَلَمَّا تَمَّ لَهُ مَا أَرَادَ ، كَانَ ذَلِكَ إِيْدَانَا
بِانْقِرَاضِ دَوْلَتِهِ ، وَدُخُولِ الْعَرَبِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ،
لِيَمَكُثُوا بِهَا مَا شَاءَ اللَّهُ لَهُمْ أَنْ يَمَكُثُوا .